

## صالح عليه السلام

هلكت عادٌ بذنوبها، فأورث الله ثمودَ أرضهم وديارهم، فخلّفوهم فيها، وعمّروها أكثر ممّا عمّروها، وفجّروا العيون، وغرّسوا الحدائق والبساتين، ونحتوا من الجبال بيوتاً، وأسّنوا غَوَائِلَ<sup>(١)</sup> الدهر، ونوائبَ الحدّثان وكانوا في سَعَةٍ من العيش، ورغد، ونعمة وترّف، ولكنهم لم يشكروا الله، ولم يحمّدوا له فضله، بل زادوا عُتُوًّا في الأرض وفساداً، ويُعدّأ عن الحقّ، واستكباراً، وعبّدوا الأوثانَ من دون الله، وأشركوا به، وأعرّضوا عن آياته وذلّثوا أنفسهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السّعة متروكون.

بعث الله إليهم صالحاً، من أشرفهم نسباً، وأوسّعهم حِلْماً، وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضّهم على توحّيده؛ فهو الذي خلقهم من تراب، وعمّر بهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام من دونه، فهي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا تُغني عنهم من الله شيئاً.

ذكّرهم بأواصر القُرْبى التي تربطه بهم، ووشّاح<sup>(٢)</sup> النَّسَب التي تصل بينه وبينهم، فهم قومُه وأبناء عشيرته، وهو يحبُّ نفعهم، ويسعى في خيرهم، لا يضمّر لهم سوءاً، ولا يريدُ بهم شراً، وأمرهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب، واجترحوا<sup>(٣)</sup> من إثم، فهو لمن دعاه قريب، ولمن سأله مجيب ولمن أناب إليه سميع.

صمّت منهم الآذان، وغلّقت القلوب، وعميت الأبصار، فأنكروا عليه نبوّته، وهزئوا بدعوته، وزعموا له أنها نايبة عن الحقّ، بعيدة عن الصدق، ثم لامّوه فيها، وأنّبوه على صُدورها منه، وهو الرَّاجِحُ عقلاً، الصائب رأياً، وقالوا: يا صالح، عهدناك ثاقب الفكر، مصيب الرأي، وقد كانت تلوح عليك مخايلُ الخير، وأمارات الرشد، وكنا

(١) غوائل جمع غائلة وهي الفساد والشر.

(٢) الوشّاح: جمع وشيجة وهي القرابة المشتبكة المتصلة.

(٣) اجترح: اكتسب.

نَدَّخِرْكَ لِمَلِمَّاتِ الدَّهْرِ، تَضِيءُ ظِلْمَاتِهَا بِنُورِ عَقْلِكَ، وَتَحَلِّ مَعْضَلَاتِهَا<sup>(١)</sup> بِصَائِبِ رَأْيِكَ، وَكُنَّا نَرْجُو أَنْ تَكُونَ عُدَّتَنَا حِينَ يَحْزُبُ<sup>(٢)</sup> الْأَمْرُ، وَيَشْتَدُّ الْخَطْبُ، فَنَطَقْتَ هُجْرًا<sup>(٣)</sup>، وَأَتَيْتَ نُكْرًا، مَا هَذَا الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ؟ أَتُنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَقَدْ دَرَجْنَا عَلَيْهِ، وَنَشَأْنَا مَتَمْسِكِينَ بِهِ! إِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ، لَا نَطْمِئِنُّ إِلَى قَوْلِكَ وَلَا نَتَّقُ بِصَدَقِ دَعْوَتِكَ، وَلَنْ نَتْرُكَ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَمِيلُ مَعَ هَوَاكَ وَزَيْغِكَ<sup>(٤)</sup>.

حَدَّرَهُمْ مَخَالَفَتَهُ، وَأَعْلَنَ فِيهِمْ رِسَالَاتَهُ، وَذَكَرَهُمْ بِمَا أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمِهِ، وَخَوَّفَهُمْ بِأَسْهٍ وَبَطْشَةٍ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَقْصِدُ مِنْ وِرَاءِ دَعْوَتِهِ إِلَى نَفْعٍ، وَلَا يَطْمَحُ فِي مَغْنَمٍ، أَوْ يَتَطَلَّعُ إِلَى رِيَاسَةٍ، وَهُوَ لَمْ يَسْأَلَهُمْ أَجْرًا عَلَى الْهِدَايَةِ، وَلَا يَطْلُبُ جِزَاءً عَلَى النَّصِيحَةِ، وَإِنَّمَا أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، دَرَاءً<sup>(٥)</sup> لِكُلِّ شَبْهَةٍ قَدْ تُسَاوِرُ نَفْسَهُمْ وَدَفْعًا لِكُلِّ شَكٍّ قَدْ يَجُولُ فِي خَوَاطِرِهِمْ.

أَمَّنَ بِهِ بَعْضُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ قَوْمِهِ، أَمَّا الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا فَأَصْرَرُوا عَلَى عِنَادِهِمْ، وَتَمَادَوْا فِي طُغْيَانِهِمْ، وَاسْتَمْسَكُوا بِعِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّكَ قَدْ خُوِلِطْتَ فِي عَقْلِكَ، وَضَاعَ صَوَابُكَ، وَمَا نَظَرْنَا إِلَّا أَنْ أَحَدًا سَلَّطَ عَلَيْكَ شَيْطَانَهُ، أَوْ أَعْمَلَ فِيكَ سِحْرَهُ، فَأَصْبَحْتَ تَهْرَفُ<sup>(٦)</sup> بِمَا لَا تَعْرِفُ، وَتَنْطِقُ بِمَا لَا تَفْقَهُ، فَلَسْتَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا أَنْتَ بِأَشْرَفْنَا نِسْبًا، أَوْ أَفْضَلْنَا حَسَبًا، أَوْ أَوْسَعْنَا غَنًى وَجَاهًا، وَفِينَا مَنْ هُوَ أَحَقُّ مِنْكَ بِالنَّبُوَّةِ، وَأَجْدَرُ بِالرِّسَالَةِ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى انْتِهَاجِ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَسُلُوكِ تِلْكَ السَّبِيلِ، إِلَّا رَغْبَتَكَ فِي تَعْظِيمِ نَفْسِكَ وَتَطْلُعِكَ إِلَى الرِّيَاسَةِ عَلَى قَوْمِكَ!

حَاولُوا صِدَّةً عَنْ دِينِهِ، وَصَرَفَهُ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَزَعَمُوا لَهُ أَنَّهُمْ إِنْ أَتَبَعُوهُ حَادُوا عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَخَالَفُوا الطَّرِيقَ الْقَوِيمَ، فَأَعْرَضَ عَنْ بُهْتَانِهِمْ، وَكَلِمَ يَسْتَمِعُ إِلَى غَوَايَتِهِمْ، وَقَالَ: يَا قَوْمَ، إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ، ثُمَّ اتَّبَعْتَ

(١) المعضلة: المسألة المشكلة التي لا يُهتدى لوجهها.

(٢) حَزَبَ: اشتد.

(٣) الْهُجْرُ: الهذيان والقيح من القول.

(٤) زَاغَ: مال عن القصد.

(٥) دَرَاءٌ: دفع.

(٦) تَهْرَفَ: تهذي.

طريقكم، وسرتُ في سبيلكم، وعصيت ربي، فمن يمنعني من عذابه أو يعصمني من عقابه؟ إن أنتم إلا مُفترون.

فلما وجدوا منه استمساكاً برأيه، واعتصاماً بحقّه، خاف المستكبرون من قومه أن يكثرَ تابعوه، ويعظم ناصرُوه، وعزَّ عليهم أن يكون المرشد للقوم، والموئل<sup>(١)</sup> عند اشتداد الخطب، والكوكب المنير إذا ادلهم الأمر، فينصرف الناس عنهم، ويفزعون إليه في كلِّ شأن، ويطلقون بابه كلما حزبه<sup>(٢)</sup> أمر، ولا شك أنه سيهديهم إلى ما يقربهم إلى الله، ويصدهم عما يُثنيهم عنه، فخافوا زوال دولتهم، وذهاب سلطانهم، وأرادوا أن يظهروا للناس عجزه، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية يتبينون بها صدق دعوته، ومعجزة ظاهرة تصدق رسالته. فقال لهم: هذه ناقة لها شرب<sup>(٣)</sup> ولكن شرب يوم معلوم فذرُّوها تَأْكُل في أرض الله.

لم ير الناس قبلاً ناقةً تستأثر يوماً بمائهم، ولم يعهدوا غيرها يَكْفُ يوماً عن شربهم؛ ولا شك أن صالحاً قد عهد فيهم إصراراً على الكفر، واستمساكاً بالباطل، وعلم أن المنكر يُفزع ظهور حجة خصمه، ويخيفه وضوح برهانه، بل يحرك كامن غيظه ومستور حقه قيام شاهده، وقوة آيته، لذلك خاف إقدامهم على قتلها، وحذرهم الفتك بها، فقال لهم: لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب.

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل في أرض الله، ترد الماء يوماً، وتصد عنه يوماً، ولا شك أن قيامها قد استمال إليه كثيراً من قومه، إذ استبانوا بها صدق رسالته، وأيقنوا بصحة نبوته، فأفزع ذلك المستكبرين من قومه، وخافوا على دولتهم أن تبيد<sup>(٤)</sup>، وعلى سلطانهم أن يزول، فقالوا للمستضعفين من قومه - وهم الذين أشرق نور الإيمان في قلوبهم، فعمرت به صدورهم، وانصاعت إليه أفئدتهم -: أتعلمون أن صالحاً مُرسل من ربه؟ فقالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون. فلم تلبث قناة القوم، ولم يخففوا من غلوائهم<sup>(٥)</sup>،

(١) الموئل: المرجع والملجأ.

(٢) حزبه: أمر: أهمهم وأصابهم.

(٣) الشرب: النصيب من الماء.

(٤) باد: هلك وانقرض.

(٥) الغلواء: الغلوة.

بل أعلنوا كفرهم، وصارحوه بتكذيبهم، وقالوا: إنا بالذي آمتُّم به كافرون.

لعلَّ هذه الناقة كانت ضخمة الجسم، متميزة الشكل، فأرهبت أنعامهم، وأخافت إبلهم، ففكروا لذلك مُقامها بينهم، وقد تكونُ حالت بينهم وبين الماء حين اشتدادِ الحاجةِ إليه؛ إذ كان لها شِرْبٌ ولهم شِرْبٌ يوم معلوم.

وقد تكون نوازي<sup>(١)</sup> الشرّ قد دفعتهم إلى إخفاء آيته، وطَمَس معالم حجته لأنهم رأوها تجذبُ القلوب نحوه، وتستميل النفوس، فخافوا أن يكثرَ المؤمنون به، وينتشر أنصاره وتابعوه.

قد يكون هذا أو ذاك، أو كلّ هذا قد حملهم على عقرها<sup>(٢)</sup>، ودفعهم إلى قتلها، رغمًا من تحذيرهم بالعذاب، وتوعُّدهم بالهلاكِ إنْ مشوها بسوء.

ما أظنُّ إلا أن القومَ حسبوا هذه الناقةَ خطراً جسيماً، وشرّاً مُستطيراً، ففكروا طويلاً، وأمعنوا كثيراً، ولا أخالهم إلاّ هابوا قتلها، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها. وكلما همَّوا بها قفلوا راجعين وأدبروا خائبين.

وبقي القوم يذفَعُهُمُ الشرّ، وتمنعهم الرّهبة، لا يجزؤ أحدهم على إيذائها ولا يتقدم واحد إلى مسّها، فاستعانوا بالنساء يبدلن ما يملكن من دَلٍّ<sup>(٣)</sup>، ويغرين بما فيهنّ من جمال، والمرأة إذا أمرتْ كان الرّجالُ طوعَ أمرها، وإذا تمتتْ تسابقوا إلى تحقيق أمنيّتها، فها هي ذي صدوق بنت المُحيّا، ذات الحسب والمال، تعرض نفسها على مصدع بن مهرج، إنْ هو عقر الناقة، آية صالح البيّنة وحجّته البالغة، وتلك هي عُنيزة العجوز الكافرة تجتذب قُدّار بن سالف إليها وتعرض عليه إحدى بناتها، ولا تطلب إليه بدلاً، ولا تسأله عطية أو مالاً، إلاّ عقر الناقة التي تستميل القلوب، وتشعل جذوة الإيمان، وهي مع ذلك تقض<sup>(٤)</sup> مضجعهم، وتستأثر بشربهم، وتنفر منها أنعامهم.

(١) نوازي: جمع نازية. وهي الحدة والنشاط.

(٢) عقر البعير: قطع إحدى قوائمه ليسقط ويتمكن من ذبحه وعقر الحيوان: ذبحه.

(٣) الدل: الحالة التي يكون عليها الإنسان من سكينته ووقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك.

ويقال: امرأة ذات دل: أي ذات شكل تُدلُّ به، أي تظهر الجراءة على الرجل في تكسّر وملاحة.

(٤) قض المضجع: اخشوشن وكان به تراب وحصى فلا يهنا فيه النوم.

فصادف هذا الإغواء هوى في نفسيهما، ورغبة في فؤادهما، وزادهما بأساً وقوة، وأفاض عليهما إقداماً وجراً، فسعيا بين القوم يلتمسان من يؤازرهما، ويبحثان عمّن يُعاضدُهما، فاستجاب لهما سبعة آخرون، وانطلقوا إلى الناقة يرصدونها، وخرجوا يربونها، فلما صدرت من وزدها، ورجعت عن مائها، كمن لها مصدع بن مهرج، فرماها بسهم انتظم<sup>(١)</sup> عظم ساقها، وابتدراها<sup>(٢)</sup> قدار بن سالف بالسيف، فكشف عن عرقوبها<sup>(٣)</sup>، فحترت على الأرض، ثم طعنها في لبتها<sup>(٤)</sup> فنحرها<sup>(٥)</sup>! وأزاحا عن كاهلها همماً ثقيلاً، وحملأ عظيمأ، ورجعا يزفان إليهم البشري، واستقبلهما الناس كما يُستقبل القائد الظافر، أو الملك الفاتح وهللوا لمقدمهما، ونسجوا لهما أكاليل المدح، وأضفوا عليهما جميل الثناء.

عقروا الناقة، وعوّأ<sup>(٦)</sup> عن أمر ربهم، وكشفوا عن ذات أنفسهم، واستخفوا بوعيده، وقالوا: يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.

فقال لهم صالح: قد حذرتكم إن أصبتموها بأذى، أو مسستموها بسوء؛ ولكنكم قد اجترحتم الذنب، واقترفتم الإثم، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام يأتيكم بعدها العذاب، ويحلُّ عليكم في نهايتها العقاب، ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب.

ولعله قد ضرب لهم ذلك الميعاد، ترغيباً لهم في الإنابة إلى الله، وحثاً لهم على الإصاخة إلى دعوته، ولكن الشكوك ما زالت متأصلة في نفوسهم، والأوهام متسلطة على أفئدتهم! فلم تُغنهم النذر، ولم يثوبوا إلى رشدهم، بل ظنوا وعيده كذباً وميناً، وتحذيره زوراً وبهتاناً، فتمادوا في استخفافهم، وسألوه أن يعجل بعذابهم، ويأتيهم بما وعدهم، فقال: يا قوم، لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون!

(١) انتظم الأشياء: جمعها وضم بعضها إلى بعض.

(٢) ابتدر: عاجل.

(٣) العرقوب من الدابة: ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها.

(٤) اللبة: موضع القلادة من العنق.

(٥) نحر: ذبح - ضرب في النحر وهو أعلى الصدر.

(٦) عتا: جاوز الحد.

ولكنهم تَمَادَوْا فِي الضَّلَالِ، وَاسْتَسْلَمُوا لِنَوَازِي الشَّرِّ، فَقَالُوا: اطَّيَّرْنَا<sup>(١)</sup> بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ.

وَاجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَتَقَاسَمُوا عَلَى أَنْ يَتَسَلَّلُوا إِلَيْهِ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ، وَيَبَاغِتُوهُ<sup>(٢)</sup> وَأَهْلَهُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، فَيُوقِعُوا بِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُمْ أَحَدٌ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سِرًّا مَكْتُومًا، لَا يَذِيعُونَهُ وَلَا يَتَنَاقَلُونَهُ.

بَيَّنَّا لَهُ الشَّرَّ، وَأَضْمَرُوا لَهُ وَأَهْلَهُ الْقَتْلَ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنْ ذَلِكَ يَعصِمُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَيُنْجِيهِمْ مِمَّا سَيَحِلُّ بِهِمْ مِنْ عِقَابِ، وَلَكِنْ اللَّهُ لَمْ يُمَهِّلْهُمْ، بَلْ أَحْبَطَ مَكْرَهُمْ، وَرَدَّ إِلَيْهِمْ كَيْدَهُمْ، وَنَجَّاهُ مِمَّا أَرَادُوا بِهِ، وَأَنْقَذَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَأَنْزَلَ بِالْكَافِرِينَ عِقَابَهُ، تَصْدِيقًا لْوَعْدِهِ، وَمُظَاهَرَةً لِنَبِيِّهِ، فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ<sup>(٣)</sup>.

وَلَمْ يَمْنَعَهُمْ مَا شَادُوا مِنْ قُصُورِ شَامِخَةٍ، وَمَا جَمَعُوا مِنْ أَمْوَالِ وَاغْرَةٍ، وَغَرَسُوا مِنْ جَنَاتٍ وَاسِعَةٍ، وَنَحَتُوا مِنْ بِيُوتِ أَمْنَةٍ.

وَرَأَى صَالِحٌ مَا حَلَّ بِهِمْ؛ إِذْ أَصْبَحَتْ جُثُثُهُمْ هَامِدَةً، وَدِيَارُهُمْ خَاوِيَةً فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَالْأَسَى يَمَلَأُ نَفْسَهُ، وَالْحَسْرَةَ تَقْطَعُ نِيَاطَ قَلْبِهِ ﴿وَقَالَ يَنْقُورٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ التَّنْصِيحَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) تَطَيَّرَ: تَشَاءَمَ.

(٢) بَاغَتَ: فَاجَأَ.

(٣) جِثْمٌ: لَزِمَ مَكَانَهُ فَلَمْ يَبْرَحْ أَوْ لَصِقَ بِالْأَرْضِ.

(٤) سُورَةُ: الْأَعْرَافِ، الْآيَةُ: ٧٩.